الاركا والانسان

او الجهاد والظفر

الأركا اشرس انواع الدلفين واشدها خطراً ولذلك لُقّب بالقتّال طولهُ عشرون قدماً فاكثر ووطنهُ البحار الكبيرة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب يسرح ويمرح فيها ويصطاد ما يشاء من اسماكها كأنهُ الاسد بين الوحوش . وهو من الحيوانات اللبونة كسائر الحيتان الكبيرة يلد مثلها ويرضع صغارهُ . وصفهُ كاتب انكليزي في مجلة وندزور وصفاً بديعاً فاقتطفنا منهُ ما يأتي تفكهةً للقراء قال

لطم النسيم وجه الماء فتغضّن وتقلّبت الأركا فيهِ مكسالاً لا يهمها وطن ولا عطن وغلوها يسبح الى جانبها وهو يدنو منها حتى يمسها فيطمئن بالهُ وكأن لسان حالهِ يقول اتسعت البحار او ضاقت وكثرت الاعداء او قلّت فمن لاذ بامهِ لا خوف عليهِ . وهي ارأم ام في الوجود فلا تبتعد عنهُ بل تضمهُ اليها من حين الى حين بزعنفتيها او تدور حولهُ وتلمسهُ بشفتيها حتى يطمئن بالهُ ويسكن بالهُ

وهي معروفة مشهورة يعرفها البحّارة ولو رأوها عن بُعد بظهرها الاسود وبطنها الابيض ولاسيما بالزعنفة الكبيرة القائمة فوق ظهرها كالاكمة فان ارتفاعها خمس اقدام وبالخطين الابيضين على خاصرتيها وكلّ ذلك من العلامات المميزة لها المحذّرة منها . لا تخاف شر احد الاّ شر ابن عمها الحوت الجبار المعروف بالعنبر اما الحوت الكبير الذي توخذ منهُ العظام فتهجم عليهِ وتقتلهُ ولو كان اطول منها اربعة اضعاف كما يهجم الاسد على الفيل . ولا تخاف شرّ الانسان لانها لمختبر قوتهُ فانها قليلة الشحم ولذلك لم يحفل الناس باصطيادها . والقرش المعروف بكلب البحر قد يدانيها في كبر جسمهِ او يفوقها ولكنهُ لا يدانيها في شراستها وحيلها . ولذلك كنت ترى هذه الاركا تسير الهوينا لا تحسب لاحد حساباً . الصخور عن يمينها والبحر الواسع عن يسارها ولا يهمها الاّ ابنها وطعامها اما ابنها فلا يفارقها ولا تغفل عينها عنهُ واما طعامها فالماء ضعاف امامها فتراهُ ولو كان في قاع البحر . ولم يكن الاّ لمحة بصر حتى غاصت في اعماق اللجج ثم عادت بالخطبوطة كبيرة حملها جهلها على الخروج من مخبإها بين الصخور فلم تكد الاركا تلمحها حتى غاصت وراءها والتقمتها . ومدت الاخطبوطة قوائمها لتمسك بشفتي الاركا لعلها تنجو من الموت العاجل ولكن لا نجاة اذا حلّ الاجل فابتلعتها الأركا لقمةً سائغة وعادت الى وجه الماء فالتقت بابنها وكان نازلاً في اثرها لكنهُ لم يستطع ان يسرع سرعتها وقد دلتهُ سليقتهُ

الاركا تفترس الورنك

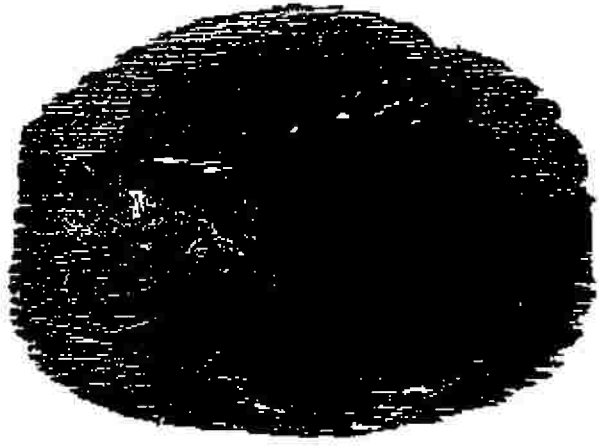

القرش

على ان البقاء حيث كان وامهُ ليست معهُ لا تؤمن عواقبهُ لأن الاعداء لهُ بالمرصاد

لم تكن تلك الاخطبوطة على كبرها الاَّ لقمة في فم الاركا لكنها تلذذت بها وزادت شهوتها للطعام فجعلت تجول مفتشة عنهُ ولم يكن الاَّ قليل حتى تغير لون الماء من الازرق الى الاخضر الزبرجدي دلالة على وجود مرتفع في البحر تصل اليهِ اشعة الشمس وكان على هذا المرتفع ورنك جناحاهُ كجناحي الخفاش وذنبهُ كالسوط الكبير فنظر واذا الاركا فوقهُ على سطح الماء فاوجس شرًّا ونزل عن المرتفع بسرعة من لمح البصر ليغوص في لجة الماء لكن الاركا رأتهُ وغاصت وراءهُ في خط مستقيم كأنها صاعقة نزلت من السماء فحاد من طريقها ووثب الى الاعلى وثبة سريعة فعلا فوق الماء وكاد يطير في الهواء وحجب الشمس عن عيني ابن الاركا لكن الوثبة والطيرة لم تدوما الاَّ لحظة من الزمان فلم يكد يرجع الى وجه الماء حتى كانت الاركا تحتهُ فضربت فاها واستلقتهُ فخابط وصارع حتى غشي الماء بجهادهِ ولكن حمَّ الاجل وانصبغ البحر بالنجيع والورنك من الحيوانات الكبيرة الدسمة فشبعت الاركا منهُ وزادت فضلاتهُ فغاصت الى قاع البحر طعامًا للحشائش التي تلتقط فتات غيرها كالسراطين ونحوها. واقامت الاركا نصف ساعة تمرّغ الخواصر ترضع ابنها وتضمهُ الى صدرها وتهضم طعامها. ثم سارت الهوينا الى ان دنت من سلسلة من الصخور الشاهقة وفي جزيرة قريبة من الشاطئ ولم تكن تغفل عن رؤية ما حولها وتحميها فرأت صيدحًا يسبح في قلب البحر على هينتهِ وكان من اكبر انواع الصيدج طولهُ من رأسهِ الى ذنبهِ ست اقدام وقطرهُ اكثر من قدم ولهُ عشر اذرع طول كل ذراع منها ست اقدام وكلهُ رمادي اللون الى الصفرة مرقَّط برقط سنجابية وكان يسير القهقرى يمتص الماء ثم يقذفهُ من فيهِ فيرجع الى الوراء بردّ الفعل

ولم تكن الأركا قد جاعت بعد اكلها الورنك ولكن جسم الصيدج الصقيل يفتح القابلية ويزيد الشهية فقرَّبت اولاً ثم غاصت في الماء والتفت الصيدج فرآها قاصدة اليهِ فضم اذرعهُ الى صدرهِ حتى لا تعيقهُ في سيرهِ ونفث الماء بعنف شديد فخرج من فيهِ كالتريد. ولم يكتفِ بذلك بل لجأ الى سلاحهِ الفطري وهو سائل اسود ينفثهُ في الماء فيسوّد كالمداد ويخفيهِ عن الانظار. فعل ذلك وركض الى نقرة صخر في قاع البحر ليتحصَّن بها. اما الاركا فلم تحفل بهذا السواد بل استمرَّت في غوصها حتى وصلت اليهِ فلم تجد الصيدج فيهِ فجعلت تدور بهتةٍ وبسرةٍ تفتح فاها وتنطقهُ لعلها تعثر بهِ فلم تجد شيئًا واخيرًا خرجت من ذلك الظلمة المدلهمة والتفتت الى ما فوقها فرأت منظرًا جعلها ترجع الى سطح الماء بسرعة من لمح البصر فان ابنها لحق بها حينما غاصت في الماء حتى اذا وصل الى السائل الاسود

ارتاع منهُ وعاد ادراجهُ وجعل يسبح على غير هدىً فرأى امامهُ فرشًا والفرش اي كلب البحر يخشى شر الاركا ويهرب منها فلما رأى ابنها وحيداً اشكل عليهِ امره وخاف ان يتعرض لهُ بسوء لئلا تسرع امهُ اليهِ وتوقع بهِ ولكنهُ كان جائعًا والجوع كافر فهجم عليهِ وقلب على جنبهِ لانهُ لا يستطيع ان يتناول فريستهُ الاَّ كذلك ورأى اولهُ شدقًا مفغورًا امامهُ كالهاوية واسنانًا كصفوف الخناجر فارتعدت فرائصهُ وايقن بالهلكة وجعل يسبح في دائرة حول المكان الذي غاصت فيهِ امهُ وجرى الفرش وراءهُ يطاردهُ ويضطركما دنا منهُ ان يتلب على جنبهِ لكي يتناولهُ بفمهِ فيهرب الولد منهُ وكان الفرش كبيراً اكبر من الاركا يبلغ طولهُ ٢٥ قدمًا ولكن الاركا اقوى منهُ وأشرس فلما رأى انها درت بهِ وصعدت اليهِ اركن الى الفرار وقبل ان يبعد عنها خمسين متراً ادركتهُ فرأى حينئذٍ ان الفرار لا يجديهِ نفعًا فدار اليها وغاص تحتها واعمل فيها انيابهُ وكانت في قد دارت ايضًا فلم يقبض الاَّ على قطعة صغيرة من لحمها لكنهُ الَمَّها وزاد غيظها وحردها فجعلت المائة جلدةً اطارت الزبد الى اعلى السماء وقبضت عليهِ عند قاعدة ذنبهِ وحينئذٍ ابتدأ الصراع والجلاد لكن الدائرة كانت قد دارت عليهِ وما هي الاَّ لمحات الموت تلجيهِ صاحبها الى الجهاد الاخير فرقت الاركا جسمهُ تمزيقًا الى ان غاص في الماء شلواً فاقد الحياة ثم ضمت ولدها الى صدرها وسكنت روعهُ وارضعتهُ وسارت الى الخليج العميق الذي بين الجزائر والشاطئ لعلها تجد فيهِ بديلاً للصيدج الذي اضاعتهُ

وكانت الريح نسيمًا لطيفًا وكان في الخليج زورق صغير بشراع واحد وفيهِ راكبان رجل اسمهُ غاردنر وكلبهُ . وعلى جانبي الخليج صخور ومخاريب فلا يأمن زورق صغير السير فيهِ الاَّ اذا كان البحر رهواً لكن صاحب القارب كان بحاراً ماهراً وكان يعرف ان بين سفينتهِ التي تركها والمرفأ الذي يقصدهُ اجواناً كثيرة يستطيع ان يلجأ اليها اذا عصفت العواصف فجأةً وكان خبيراً بتقلب الرياح كأنهُ طبيب يحس نبضها لكنهُ كان يجهل طبائع الحيتان فلما رأى الاركا وظهرها لم يعرف منزلتها والاَّ فرَّ من وجهها حالاً لكنهُ جهل امرها فجعل يدنو منها ليعلم ما هي حتى اذا صار على ثمانين متراً منها غرَّتهُ نفسهُ باطلاق الرصاص عليها ولم يخطر لهُ ان رصاصهُ يغور في دهنها ولا يضرها واذا اصاب منها مقتلاً وقتلها غرقت في البحر حالاً فلم يستفد منها شيئًا . لكن الغرور يلقي بصاحبهِ في المهالك فاختطف بندقيتهُ وسددها الى خاصرتها حيث ظن انهُ يصيب قلبها واطلق الرصاص وجعل كلبهُ ينبح عليها فلم تعبأ بهِ ولا بكلبهِ في اول الامر ولكنها شعرت ان ابنها اضطرب وابتعد عن صدرها وجعل يختبط فاخذت تريتهُ بزعنفتيها لتسكن روعهُ ورأى غاردنر ذلك فادرك انهُ اصاب ابنها وندم على ما فعل

ولات ساعة مندم ولو علم ان لها ولداً لما اطلق الرصاص عليها ولا على ولدها. ثم رأى ان الولد لا يزال يخبط فحسب ان جرحهُ مميت فاراد ان يجهز عليهِ لكي يخلصهُ من الم النزع فاطلق عليهِ رصاصة ثانية كانت القاضية . وقبل ان يسكت الصدى سكن الولد ثم اخذ يغوص في الماء وجعلت امهُ تدور حولهُ الى ان تحققت انهُ فارق الحياة فالتفتت الى القارب وعرفت من اين جاءتها هذه البلية وادرك غاردنر حرج الموقف فادار قاربهُ ليهرب بهِ الى الصخور لكن الاركا ادركتهُ حالاً . كان بينها وبينهُ اكثر من مئة قدم فصيرتها باسرع من لمح البصر . وقابلها غاردنر ببندقيتهِ اطلقها في وجهها لكن الرصاص لم يصرفها عنهُ بل صدمت القارب صدمة تزحزح الجبال فقلبتهُ ظهراً لبطن وهي تظن ان عدوها الكلب الذي كان ينبح عليها فخطفتهُ وعجنتهُ عجناً ثم مسكت القارب والقتهُ بهِ ولم تنتبه الى غاردنر في اول الامر فسبح مسرعاً الى الصخر الذي امامهُ بكل ما فيهِ من القوة والنشاط وكانت في الصخر نقرة عالية فوثب اليها وكانت الاركا قد فرغت من الكلب والقارب وادارت نظرها فرأتهُ لاذاً بذلك الصخر فبادرت اليهِ كالقضاء المبرم فلطم جسمها الصخر لطمة عنيفة كادت تقضي عليها . ولما رأت انها لا تستطيع الوصول اليهِ لم تحاول الهجوم على الصخر مرةً ثانيةً بل اكتفت بالسباحة امامهُ كانها ديدبان قائم على حراستهِ

وكانت النقرة التي لجأ اليها غاردنر ضيقة تسعهُ واقفاً فمدَّ يديهِ الى ما فوقهُ لعلهُ يجد شيئاً يتمسك بهِ ويصعد الى اعلى الصخر فلم يجد ولم يكن يعلم كم تبقى الاركا قائمة على حراستهِ ولا امَّل انها تنفك عنهُ قريباً لشدة ما رأى فيها من الغيظ ولانهُ لا يتعذَّر عليها ان تجد ما تتقوَّت بهِ من الطعام هناك . وكان هذا الصخر على نصف ميل من الشاطئ ولا يصعب عليهِ ان يقطع هذه المسافة سباحة ولكن كيف السبيل الى ذلك وعدوهُ امٌّ ثاكل قائمة لهُ بالمرصاد . وكان الصخر متجهاً الى الشرق والشمس تضربهُ وقد سخنتهُ حتى صار الوقوف في نقرتهِ شاقاً جداً فاسقط في يد غاردنر وقال في نفسهِ ان الحر والعطش لا بدَّ من ان يتغلبا عليهِ عاجلاً او آجلاً فيقع في فم عدوهِ رغماً عن انفهِ لكنهُ عاد فرأى ان الشمس كادت تميل عن الهاجرة ومتى مالت صار في الظل وقلَّت حرارتها فلا خوف عليهِ منها في بقية ذلك النهار والليل التالي ولكن كيف يكون شأنهُ متى اصبح الصباح واضطرَّ ان يقف في عين الشمس الى الظهر . فجعل يصلي الى الله لكي يثير نوءا حتى تغطي السحب وجه الشمس ثم خطر لهُ انهُ اذا أُجيب طلبهُ فقد يشتدُّ النوء وتعلو الامواج فتحمل اليهِ وتقتلعهُ من مكانهِ . فترك الصلاة وقال يفعل الله ما يشاء . وانقضى النهار وغابت الشمس واشرق القمر وكان بدراً و بقيت الاركا على حراستها تبج

امام الصخر ذهاباً واياباً بلا كلل ولا ملل . وخاف غاردنر ان يغلبهُ النعاس فينام ويقع في البحر فجلس حيث هو وادلى رجليهِ حاسباً ان الاركا قد تحاول الوصول اليهِ بغتةً فتلطم بالصخر كما تلطمت اولاً اما هي فدنت منهُ رويداً رويداً ونظرت اليهِ كأنها تقيس المسافة التي بينها و بينهُ لكنها لم تفعل ما فعلتهُ بالامس . واختفى القمر وراء الصخر وظهرت تباشير الصباح ثم صعدت ملكة النهار بمركبتها النارية ولسان حالها يقول اصبر على حر قاري يا مشكل الامهات .

اما هو ففتش في جيبهِ فوجد خيطاً طويلاً فخلع سترتهُ وربطها بالخيط ودلاها الى البحر ليلها ورأت الاركا ذلك فاسرعت اليهِ لترى ما هو فاعل فرفع السترة من الماء قبل ان وصلت اليها واتعشت آمالهُ لانهُ صار يستطيع ان يتقي حرارة الشمس والم العطش بما يمتصهُ جسمهُ من الماء

ولكن قضت التقادير ان زمان محنتهِ لا يطول فانهُ سمع حينئذٍ صوتاً يدل على ان قارباً بخارياً مارٌ وراء الصخر ولم يكن الاَّ قليل حتى صار على مرأى منهُ فجعل ينادي باعلى صوتهِ ويلوح بسترتهِ فالتفت ربان القارب واذا هو يرى رجلاً في ثغرة ذلك الصخر فادار الدفة ليدنو منهُ ولكنهُ لم يسر قليلاً حتى رأى الاركا فادرك الخطر قبل الوقوع فيهِ

وكان في القارب ثلاثة رجال فنادوا غاردنر قائلين ما الخبر فقال قتلت ابن هذا الوحش فسحق قاربي وتبعني الى هذا الصخر . فقال لهُ الربان لا يتحرَّش بالقتَّال الاَّ المجنون . فقال غاردنر اصبت ولكن سبق السيف العذل وقد مضى عليَّ الآن عشرون ساعة وانا في هذا الحصار فخافوا الله وانقذوني

ووقف الرجال الثلاثة يتشاورون و بقيت الاركا في مكانها كأن هذا القارب وطولهُ اربعون قدماً قشةٌ طافية على وجه الماء . ثم قالوا لغاردنر اصبر قليلاً حتى ناتي بمدفع الحيتان فان معنا هنا بندقية كبيرة ولكن ما هي لمثل هذا الحوت لاننا اذا لم نقتلهُ بالطلق الاول اصابنا ما اصابك

فشكرهم وعادوا ادراجهم ثم رجعوا بعد ساعة ومعهم مدفع كبير سددوهُ الى الاركا واطلقوهُ عليها فوثبت من الماء ثم ارتمت فيهِ وجعلت تدور في دائرة ثم صدمت الصخر صدمة عنيفة كأنها ارادت ان تنتقم من قاتل ابنها قبل مغادرتها الحياة ولكنها غاصت في الماء لا تبدي حراكاً

والدنيا جهاد مستمر حيوانات يأكل بعضها بعضاً ووالدات ترأم صغارها وتفتك بصغار غيرها والانسان سيد المخلوقات يفتك بها كلها لا يشفق ولا يرحم سنة الله في خلقهِ . اذا نفينا الالم الجسمي عنها كما تقدم فهل يستطيع احد ان يقول ان تلك الاركا لم تكن تتألم المًا ادبياً كما نتألم الام الثاكل . حقاً ان في الخلق اسراراً لا ندركها وآيات غير بينات